ثانياً: تأملات..!!

تلاقح الحضارات.. والحوار مع الآخرين..!

لعله من المناسب هنا أن يكتب كاتب قادر بعض الأفكار الصادقة والانطباعات الأولية عن مجتمع غير مجتمعه. ونحن نعلم أن كثيراً من الكتابات والآراء حول المجتمعات الأخرى تحاول ـ في مجملها ـ أن تقلل من أهمية هذه المجتمعات في سبيل إبراز أفضيلة المجتمع التي تعيش فيه.

لا بد من التأكيد على أن هناك مجتمعات فاضلة ومجتمعات مفضولة. ولكن المجتمعات الفاضلة لا تخلو من هنات البشر التي لا بد منها في حياة البشر. ويخطىء من يحاول أن يطهر أي مجتمع من تصرفات البشر التي نزلت الكتب السماوية لتقول كلمتها فيها، ولتحدد موقف القائمين على المجتمع منها.

والمجتمعات المفضولة لا تخلو أيضاً من جوانب تفتقر إليها المجتمعات الفاضلة، وتلكم من سنن الله في خلقه. ويخطىء من يحاول أن يلصق كل نقيصة في المجتمعات المفضولة فقط؛ لأنها مجتمعات مفضولة.

أقول هذا وأنا أسمع أحياناً نقاشاً قائماً على هذه النظرات المتميزة التي ينقصها العدل في الحكم. ولعل السبب في هذه النظرات الشعور بأن

هذه المجتمعات ضد القيم والمبادىء التي يدين بها مجتمعنا، وأن هذه المجتمعات تسعى سعياً غير معلن للقضاء على هذه القيم والمبادىء القائمة على الوحي الإلٰهي. ولعل مجرد كونها قيماً ومبادىء إلٰهية يعفي من الخوف من أي مجتمع آخر للقضاء عليها ما دامت محفوظة من الباري عز وجلَّ.

وواقع الحال أن المجتمعات الأخرى مقبلة الآن على تبني هذه القيم والمبادىء بشكلها الشامل المتكامل، الذي لا يمكن أن يتحقق إلا من خلال إحلال الدين الإسلامي محل المعتقدات الأخرى، سواء كانت بقايا من رسالات سماوية، أو كانت مرية مجرد التفكير فيها يدعو إلى البعد عنها والبحث عن قوة عظمى يتعلق بها المرء ليؤمن على حياته ومصيره بعد مماته.

حقاً إن هذا الاطمئنان من عدم قدرة المجتمعات الأخرى على القضاء على القيم والمبادىء الربانية لا يعني الاستكانة والاتكالية التامة. ومع هذا فإنه لا بد من وضع هذا المبدأ في الاعتبار ومحاولة تحويل المجهود إلى المهمة الأسمى، وهي انتشال المجتمعات الأخرى من الدوامة التي تعيش فيها وإبراز البديل لهذا الخلط إبرازاً يضع الآخرين أمام الأمر الواقع، ثم يترك مقياس التأثير والتأثر لله تعالى يحكم به بمشيئته المطلقة. وهنا سيكون التأثير قوياً عندما لا يواجه الآخرون بالحط من قيمهم ومبادئهم التي يتبنون كثيراً منها عن قناعة، ويتبنون بعضاً منها لأنهم لا يعرفون هناك بديلاً عنها. والذي يبدو أن الشخص ينتقد مجتمعه وبعض التصرفات فيه مع أقرانه من أبناء المجتمع نفسه، ولكنه يتحفظ عندما يكون الجانب الآخر خارج الإطار حتى لو كان هذا الجانب الآخر قد جاء ليخرج هذا المجتمع من ظلام دامس إلى نورٍ شامل. وربما أدى هذا الأسلوب في المواجهة إلى التأخير في قبول ما جاء به هذا المصلح

أو الموجه أو الداعية، أو المناقش، أو أياً كانت مهمته. ولعل من الأولى لمن أراد استغفال الآخرين في قيمهم أن يتحدث عن نفسه وألا يتمثل في هذا قيماً يريد لها أن تحل محل القيم البالية التي ينتقدها.

كان أحدهم يتحدث عن الوضع في الفليبين بعد مغادرة ماركوس وتولي أكينو، فكان يقول كلاماً لمجموعة من الفليبينيين عن السلف والخلف لا يريدون سماعه عنهما مهما كانا غير مقبولين. وما كان منهم إلا أن تضايقوا وبحثوا عن مخرج لهذا، وعندما وجدوه تشبثوا به فكان التأثير. وكان آخر يشتم المجتمعات الغربية في الوقت الذي تراه يعيش فيها ولا يقبل مغادرتها والتعامل مع أي مجتمع غيرها. وكان ثالث قد وطد النفس على الحط من كل ما يأتي من الغرب حتى ولو كان من الأشخاص الذين يتبنون القيم والمبادىء التي يتبناها هذا الشخص، إلا أنه يحس أن هذه القيم لا بد وأن تتأثر من قريب أو بعيد بالقيم الغربية ـ التي يراها جملة وتفصيلاً غير مقبولة لتقود أمة ـ وهو وإن كان على شيء من الحق في هذا فلا يعني أنه لم يجانب الصواب في حكمه العام الذي جعله من مسلمات موقفه من هذا المجتمع.

والعجيب في هذا أن مثل هذه النماذج إنما اعتمدت على الدعايات والإشاعات والأقوال البعيدة عن المعايشة، لتحكم من خلالها على المجتمعات الأخرى بأحكام لها أساس من الصحة، ولكنها ليست بالضرورة صحيحة في مجملها. وكثيراً ما يتحول الموقف إلى الدفاع الذي يأخذ طابع الهجوم على المجتمعات الأخرى. ومجتمعنا ليس بحاجة إلى من يدافع عن قيمه ومبادئه الربانية بقدر ما هو بحاجة إلى من يوضح هذه القيم والمبادىء للآخرين ويزيل عنها الغبش الذي ألبست إياه من قِبَل بعض الذين لووا هذه القيم والمبادىء لتناسب منطلقات بشرية منحرفة عن الخط المستقيم. ومتى ما اتضحت الرؤية للآخرين من خلال

الإيضاح والممارسة وجدنا أن المجتمعات الأخرى تُقبل باندفاع لتبني هذه القيم والمبادىء بشكلها الشمولي الذي جاءت به.

وستتضح الرؤية من خلال الحوار. وهو ما يسمى الآن بحوار الحضارات، ويسميه البعض بتلاقح الحضارات، ومع إدراك الفرق بين المصطلحين إلا أن كليهما فيه نوع من اللقاء القائم على قبول بعض مقومات حضارة لحضارة أخرى في الوقت الذي يكون فيه العكس صحيحاً، فلا يقتصر الأمر على التلقي من جانب واحد فقط.

وإذا كان البعض قد يتحفظ على فكرة تلاقح الحضارات وفكرة حوار الحضارات فإن هذا نابع من الخوف على الحضارة الإسلامية من أن تطغى عليها مقومات الحضارات الأخرى فتمسخها وتحل محلها. وهذا قطعاً لن يكون بسبب من اليقين في حفظ هذه الحضارة ومقوماتها. وهذا الحفظ لم يمنع في السابق ولن يمنع في الحاضر والمستقبل من أن تستفيد الحضارة الإسلامية من إيجابيات الحضارات الأخرى، خاصة أن الحضارة الإسلامية إنما هي امتداد لحضارات سابقة كانت تقوم على الوحي الإلٰهي قبل أن يتدخل في تعاليمها الإنسان فيعدل فيها ويحذف ويضيف.

وعلى هذا فالحوار مطلوب عندما يكون المحاورون على درجة قوية من الاطلاع والفهم والإدراك والتطبيق للحضارة الإسلامية فتجد عندهم المبررات للثغرات التي مرت بها هذه الحضارة في فترات ضعفها عبر السنين الماضية وليس هناك بأس من هذا المنطلق من فتح باب الحوار ليس رغبة في التلاقي، ولكن في التوضيح والكشف عن القيم السامية لهذه الحضارة لدى عالم خيمت عليه قيم جرَّت إلى مصائب بدأ يبحث في الخلاص منها ومن القوانين التي ساعدت على قيامها وانتشارها في تلكم المجتمعات. و لا يكفي هنا أن نتوقف عند انتقاد هذه المجتمعات والحط منها إذا كنا غير قادرين على تقديم الحلول لها.. والله المستعان.

حكمة الجاهلين.. وجهل المتعلمين..!

قال لصاحبه وقد مضت بهما السنون: كيف أحوال الجماعة؟
أجاب: تفرقوا!

سأل الصاحب: وكيف حال الاثنين؟

أجاب: أصبحوا ثلاثة!

وسأل الصاحب: ما أحوال البعيد؟

أجاب صاحبه: صار قريباً!

أما سؤاله عن الجماعة فكان يقصد الأسنان وكانت قوية متقاربة فتفرقت، وسقط منها ما سقط. وسؤاله عن الاثنين فكان يقصد قدمي صاحبه وساقيه وكان يعينانه على شق الطريق والسفر الطويل، فأصبحا ثلاثة إذ احتاج إلى أن يتوكأ على العصا. وسؤاله عن البعيد فكان يقصد به النظر وكان قوياً حاداً يرى من خلاله الأثر البعيد، ومع طول الدهر ضَعُفَ فأصبح الصاحب لا يرى إلا القريب.

وفي المجتمع العربي المعاصر مجموعة غير يسيرة في هذه الحكم التي تحتاج إلى سامع فاهم يفسر عموم الكلام ويدرك الكنه والمراد. رغم أن المجتمع العربي المعاصر ـ وخاصة منه جيل الآباء والأجداد ـ كان قليل

الحظ من العلم المنهجي، ولذلكم كان ـ ولا يزال ـ جزءاً غير يسير من هذا المجتمع يرمي بالأمية بالمفهوم السطحي للأمية والمقصود عدم القدرة على الكتابة والقراءة. وعندما يريد أحد أن يستجهل أحداً يرمي بما لديه من علم بأنه يقل بكثير عن العلم الذي كسبته الجدة. وتلكم تهمة يطيب للبعض أن يطلقها دون تحفظ، وكأن الجدة من أجهل خلق الله على الأرض لمجرد أنها لم تكن قادرة على الإمساك بالصحيفة بالوضع الطبيعي ولم تكن قادرة على متابعة الأحداث في لبنان أو أفغانستان أو حتى الصين. بل ربما لم يصلها شيء من أخبار الحرب العالمية الأولى أو الثانية؛ لأنها لم تتأثر بهما من قريب بفضل من الله.

وليس من المصلحة ولا من المناسب أن يرمى هذا الجيل بالجهل والأمية فقد كانت ولا تزال آثاره تتردد وتؤثر على المجتمع وتصدر فيها الكتب والروايات والقصص العجيبة، وتتردد في المجالس التي يغلب على جالسيها كبار السن ذوو التجارب الحية من أولئكم الذين لم تقبل عليهم الدنيا، كما أقبلت على أولادهم وأحفادهم، فاضطروا للسفر بحثاً عن الرزق مخلفين وراءهم الأهل والولد أودعوهم رعاية الله وغابوا عنهم السنين دون وسيلة للاتصال مشافهة أو كتابة فتعلموا من مدرسة الحياة تلكم الجامعة المفتوحة متعددة التخصصات مختلفة الفترات.

ولدينا في المملكة العربية السعودية مجموعة من الإصدارات التي نقلت هذه المعاناة إلى الأجيال التي لم نعشها فكتب الشيخ عبد الله بن خميس وكتب الأستاذ عبد الكريم الجهيمان، وكتب آخرون كالمسلم مع العقيلات، وغيرها كثير تعد خير شاهد على أن إلصاق الجهل بهذه المجتمعات تهمة لا تستحقها هذه المجتمعات، فالجهل كلمة قوية ذات شمول يصعب إطلاقها على مجتمعات بعينها دون تقييدها بنوعية خاصة من الجهل.

جهل المتعلمين..!!

والتعلم والتعليم المنهجي بصوره الحديثة لا يعني مجال قدرة المتعلم على امتطاء صهوة الحكمة، فهناك من يكتبون ويقرأون ولكنهم لا يدركون من الحياة وتجاربها إلا ما هو في محيط هذا التخصص الدقيق الذي اتجهوا إليه، فأشغلهم عن متطلبات للحياة يضطرون لتحقيقها من خلال الاستعانة بالآخرين، ولو لم يتعد الأمر ذبح دجاجة إو إصلاح عطل يسير جداً يالسيارة أو كهرباء البيت. وبسبب هذا انتشرت محلات الخدمات اليسيرة تبحث عن أمثال هؤلاء تسترزق من ورائهم، فتجد أن عطلاً يسيراً في آلة كهربائية يحتاج بصاحبه إلى أن يأخذه إلى هذا «الكهربائي» الذي يجد أن حجم العطل مضحك إلى درجة أنه قد لا يتعدى انفصال التيار مثلاً، ولكنه ـ ولسوء في الأمانة ـ يستغل الموقف لصالحه ويسلب من صاحبنا المتعلم قسطاً لا بأس به من المال.

ولا يقتصر الأمر على هذا الجانب المادي من جهل المتعلمين، ولكنك تراهم في المجلس لا يحسنون الحديث، ولا يفهمون ما يدور في المجلس ولا يستطيعون الرد المباشر على الكلام الذي يوجَّه إليهم، إما لدعابة أو لأمر أعمق منها، وتراهم لا يعطون الجالسين حقهم من حيث قدرتهم على التعامل مع الحياة لمجرد أنهم لم يحصلوا على المؤهلات «العلمية» التي حصل عليها هؤلاء الجاهلون من المتعلمين. وتلكم ورب الكعبة مشكلة يصعب إدراكها من قبل مجموعة غير يسيرة من هذه النوعية من المتعلمين.

الهارب من الجهل:

كان أبوه من سدنة النار من أهل المجوس، يسهر على (راحة) النار يعبدها لتأكله. لم يرتح الفتى لهذا الأسلوب من التعامل مع الحياة، ولم

تقبل روحه التعامل مع النار كوسيلة لتفريغ شحنات الحاجة إلى التعلق بالقوة الأعظم. ذهب يبحث عن الحقيقة هارباً من الجهل «المطبق» فوقف على راهب فاسد فلم يعجبه أسلوبه في استغلال الدين. علم والده سادن النار المجوسي أن الابن سوف يعقُّ النار فكبله بالحديد وقربه من النار أو قرب النار منه إكراهاً في الدين. ولكن الفتى يتحرر من الأكبال المادية والمعنوية ويذهب لراهب آخر يجد به صلاحاً، فيدله الراهب على بشائر خروج نبي عربي يهاجر من بلده إلى بلدة ذات نخل في الجزيرة العربية، فيهاجر الفتى إلى الجزيرة ويصاحب قوماً فيبيعونه ـ وهو حر طليق ـ إلى يهودي فلاح على مشارف يثرب، فيعمل عنده في الفلاحة وهو يترقب ظهور الرسول العربي، فيسمع حديثاً بين اليهودي «سيده» ويهودي آخر عن مقدم محمد ـ عليه السلام ـ إلى يثرب ووقوفه في قبا، فيستزيد الرجل الأخبار، ولكن سيده اليهودي يلطمه على وجهه، ويخرج الرجل يبحث عن محمد ومعه زنبيل من التمر فيقدمه إلى محمد صدقة فلا يأكل منه هذا الرسول ـ عليه السلام ـ لأنه لا يقبل الصدقة، وفي اليوم التالي يقدم الرجل ومعه زنبيل آخر من التمر فيقدمه إلى الرسول هدية فيأكل منه وأصحابه، وكان في الأولى قد أعطى الصدقة لأصحابه ليأكلوا، ويتبع الرجل محمداً ـ عليه السلام ـ يحدِّق في موضع بين كتفيه ـ عليه السلام ـ فيدرك الرسول مطلب الرجل الفارسي فيحسر عن كتفيه ويرى الرجل ختم النبوة فيستقر باله ويشهد أن لا إلٰه إلا الله وأن محمداً رسول الله، وكان الراهب الثاني الذي أخبره بظهور النبي العربي قد قال له إنه لا يقبل الصدقة، ويقبل الهدية، وبين كتفيه خاتم النبوة. ويستقر الرجل الباحث عن الحقيقة حينما رأى الحقيقة ماثلة أمامه متمثلة في الرسول الحق ـ عليه السلام ـ فينتسب إلى الإسلام ويهرب من عبادة النار إلى نعيم الجنة ـ بإذن الله ـ ويقربه الرسول منه حيث يقول: سلمان منا آل البيت. وحيث يقول هو:

أبـي الإسـلام لا أب لـي سـواه إذا افتخروا بقيس أو تميم. . .

تجربة الحياة تمثلت في هذا الرجل المعمر الذي رفض الجهل ولفظه بعد سعي في البحث عن الحقيقة يقال أنه امتد إلى ثلاثمائة سنة هي مجمل حياة وعمر سلمان الفارسي ـ رضي الله عنه ـ وما أحوج فارسيي اليوم إلى نماذج أخرى مصغرة من هذا النموذج العملاق. والعجيب أن جملة غير يسيرة من أبناء فارس لا يدركون قصة سلمان الفارسي علهم يتأثرون بها فينبذون الجهل والجهالة ويقبلون على الله.

الجاهلية النسبية:

والمثال الذي أوردته في مطلع هذا الحديث كان مثالاً معاصراً، ولم يكن وليد شيء من الجاهلية، وإن كان البعض يريد أن يسم أصحابه بالجهل. وفي الجاهلية ـ قبل الإسلام ـ لم يكن العرب بالجاهلين جهلاً مطبقاً ولكنهم روحياً كانوا على جهل مع علم غير واضح بالقوة الأعظم، فأخطأوا الطريق للوصول إلى الله فصنعوا التماثيل والأصنام لتقربهم إليه. وكان لديهم الاستعداد وإن يكن لدى بعضهم العناد والإصرار رغم ظهور الحقيقة. ولم يكونوا ـ فيما يبدو من آثارهم ـ يرغبون في الجهل والجهالة، ولا يقدرون من يرميهم بها ولو كانت جهالة نسبية. قال شاعرهم:

وللحلم أوقات وللجهل مثلها ولكن أوقاتي إلى الحلم أقرب

ويقول آخر في الجهالة النسبية أيضاً:

ألا لا يجهلن أحـد علينـا فنجهل فـوق جهـل الجاهلينـا

ولذا فإن رمي المجتمع العربي قبل الإسلام بالجهالة الجهلاء أمرٌ يحتاج إلى نظر. ويجيء هذا الاتهام في محاول لإفهام الآخرين بأن الإسلام جاء ليغير المجتمع من توجه إلى توجه آخر، وذلكم ما حصل.

ولكن العرب لم يكونوا على قدر كبير من الجهل والجاهلية والجهالة بحيث تتغير حياتهم تغيراً جذرياً فقد أقرهم الإسلام على أمور، وهذب أموراً كانوا يمارسونها، ونهاهم عن أمورٍ لم يكونوا جلّهم مرتاحين لها. ولعل من المصلحة عدم الإغراق في رمي المجتمع العربي قبل الإسلام بالجاهلية الجهلاء، إذ ربما كانت نتيجة هذا الرمي عكسية غير مرغوب فيها. كما أنه لم يكنِ من واقع الحال ذلكم الوقت أن العرب كانوا على قدر كبير من الحضارة والثقافة والعلم. وخير الأمور أن يصوَّر ذلكم المجتمع على ما كان عليه.

وعلى أي حال فالجهل أنواع، قد لا توجد متحققة في مجتمع بعينه، أو في فرد بذاته، وتجنب الجهل بأنواعه كلها مكسب عظيم ومطلب غير يسير.

محطات وزن الأفكار..!

ما الذي تعنيه الكلمة «العربية»؟ هل المقصود هنا مجموعة من الأفراد رجالاً ونساءً يتحدثون العربية؟ هل المقصود مجموعة من الأفراد رجالاً ونساءً يلتقون في مقومات عدة منبعها المنطقة العربية؟ يبدو أننا تخطينا مرحلة ما يسمى بالقومية العربية التي ظهرت واضحة الدعوة إليها في السبعينات والثمانينات الهجرية/ الخمسينات والستينات الميلادية. أصبح البعض يخجل الآن عندما يتحدث عن القومية بمفهومها السابق، وإن كانت كثير من المطبوعات العربية تتحدث عن هذا المصطلح دون وعي لمدلولاته، فتذكر كلمة «القومية» عندما تريد الحديث عن الوطنية. وهناك المراكز والمعاهد والمؤسسات الوطنية التي تحمل اسم القومية - مثل المركز القومي للتوثيق، والمعهد القومي، والمؤسسة القومية، ويراد بها ما يخدم الوطن ولا يخرج عنه إلا على سبيل التعاون. وقد تنبهت الجامعة العربية لهذا المصطلح وعدم جدوى ذكره فكان هناك معهد المخطوطات العربية (وليس القومية) المنبثق عن المنظمة العربية (وليس القومية) للتربية والثقافة والعلوم وهناك العديد من المؤسسات العلمية التابعة للجامعة العربية أغفلت هذا المصطلح.

وهل يعني إغفال مصطلح «القومية» التخلي عن العربية بكل ما فيها

من خير نافع؟ كانت هذه ردة فعل لدى البعض من أبناء العرب نصبوا من أنفسهم حماة لكل ما هو غير عربي وإن لم يعلنوا موقفهم السلبي الواضح من القومية العربية ومما هو عربي. فترى الاستيراد واضحاً فيهم ولديهم. فالحياة عندهم لا تختلف عن الحياة في مجتمع آخر غير عربي. وغالباً في مجتمعات متقدمة. وليس الحديث هنا من السطحية بحيث يعطي أمثلة للممارسات الشخصية في العادات والتصرفات. فتلكم عادات مستهجنة. ولكنها لا تبنى عن خلفية قوية في الدعوة إلى كل ما هو غير عربي. فعندما نرى رجلاً قد حشى غليونه بالتبغ وصار ينفث منه الدخان وحمل معه «العدة» ينقلها من مكتب إلى آخر ومن مجلس إلى آخر لا نرى فيه خطراً؛ لأنه استورد الغليون بدلاً من لفافة التبغ، إذ إن كليهما مستورد في الأصل، والخطر منهما مشترك ويعود بالدرجة الأولى على الفرد قبل أن يعود الخطر على المجتمع.

ولعل الحديث هنا فيه شيء من العمق عندما ينصب الاستيراد على الأفكار. فيتبنى البعض فكراً أو فكرة كل ما فيها أنها مخالفة لما قام عليه المجتمع العربي منذ أن كان للمجتمع العربي كيان متكامل صار يحمل فكراً بعد حرب البسوس وداحس والغبراء. إذ إن حرب البسوس لم تكن لتحمل فكراً تدافع عنه، وكذا الحرب الثانية. وليسا مقياساً للعقل العربي، ولكننا نتحدث عن هذا العقل عندما أصبح يحمل رسالة اهتزت لها أرجاء الأرض اهتزازاً ومعها بدأت المؤامرة العالمية الكبرى على هذه الرسالة، لا لشيء إلا لأنها تهدد الأطماع الشخصية وتقوض الامبراطوريات التي قامت على استعباد البشر والاستيلاء على خيراتهم. هي بكل هذه البساطة وإن لم تكن بكل هذه السطحية. ولا نحتاج إلى الطلاسم والرموز في سبيل أن يقبل منا هذا الكلام، فقد عودتنا هذه الرسالة السامية أن نكون بسطاء، ولكنها عودتنا في الوقت نفسه ألا نكون سذجاً نطأطىء الرأس

لكل شيء. وعليه فإننا لا بد أن نقف موقف الحذر لكل ما هو مستورد. لا بد أن نقيم محطات للوزن. نزن فيها الأفكار كما تقام محطات وزن الشاحنات على الطرقات البرية. فما لا يناسبنا من أفكار نقف دونه، نحول دون أن يكون له شأن بيننا. وليس أشخاصاً أولئكم الذين يحددون سلامة الأفكار من عدم سلامتها، إنه المنهج الذي يوضع في كل محطة وزن للأفكار فما ناسبه يقبل، ومالا يتعارض معه يقبل. وما يهدد كيان هذا المنهج يرد وبكل وضوح. أرأيتم هنا أننا نقبل نوعين من الأفكار لا نوعاً واحداً. نقبل من الأفكار ما يناسب منهجنا وما لا يتعارض معه. ونرد فقط ما يهدد كيان المنهج. وعليه فلا غرابة أن نقف من المستورد هذا الموقف الحازم الذي جعل كثيراً ممن ساروا وراءه يعيدون النظر في سيرهم ويتوقفون للحظات، يزنون أفكار هذا المستورد بميزان المنهج، فيجدون أنه يهدد كيان المنهج فيتوبون عنه ويقلعون ويحاولون «التكفير» عما انزلقوا فيه وما آلوا إليه من التيه الفكري. ولا يزال آخرون يصرون على المستورد. ولا تزال طائفة منهم تستورد. ويقف الآخرون وقفات علمية وثائقية صادقة يبينون للمجتمع من هذا الفكر المستورد فيكون الإقناع قوياً؛ لأن الوقفات كانت علمية. ولا يهمنا هنا المصطلحات الذي يدور حوله هذا الحديث، إذ إن من الأزمة الفكرية التي يعيشها المجتمع العربي عدم قدرته الآن على استيعاب المصطلحات وعدم الوضوح الشامل للفكر المراد وراء هذه المصطلحات. فهناك مصطلحات التراث والمعاصرة والأصالة والحداثة والرجعية والتجديد، وغيرها من المصطلحات التي توحي بأن هناك صراعاً عنيفاً في الفكر العربي. ولعله كان وليد الجمود الفكري الذي مرت به الأمة العربية إثر الهيمنة الاستعمارية وقبل هذه النهضة العلمية التي تعم البلاد العربية دون استثناء.

وعلينا أن نكون بسطاء مع أنفسنا ومع الآخرين فنقر أن الفكرة تبقى

هي الفكرة. فلا تتغير عندما نلبسها ثوباً غير ثوبها الذي بيعت فيه. وقديماً عندما كانوا يتحدثون عن الاشتراكية قالوا إنها اشتراكية عربية لا تخرج عن الإطار الإسلامي (!) وجعلوا من قادة وزعماء الفكر العربي والإسلامي اشتراكيين، ولكن لأن الفكرة لم تتغير لم يناسبها الثوب العربي وهكذا مع بقية الأفكار الأخرى. والذين يتحدثون الآن عن فكرة المعاصرة أو الحداثة على أنها حداثة عربية ـ أو إسلامية في حدود الشريعة (!) فإنهم يحاولون أن يلبسوا هذا الاتجاه الثوب العربي، ولكنه لا يناسب ولن يناسب رغم كثرة المفصِّلين. وليس أدل على عدم مناسبته ما يتردد أحياناً من إنتاج في هذا الاتجاه إنما هو إساءة لكل ما هو عربي إسلامي يقع فيه البعض مبطناً بالرموز والطلاسم. فيوزن هذا الإنتاج بميزان المنهج فيتضح فيه الاتجاه الذي يهدد كيان المنهج الذي نسير عليه وتسير عليه بقية الأمة.

ولا يضير في الوقت الراهن أن تكون الساحة الفكرية قد أوقفت في معظمها على هذا الاتجاه الفكري أو ذاك مما يتعارض مع المنهج، فتلكم فترة «تتخمر» فيها الأفكار ولا تلبث أن تتضح للآخرين من خلال التوضيح «البسيط» لما يدور في الساحة من خلال الغوص في عمق الفكرة نفسها للتعرف على مبعثها أولاً ودوافعها ثانياً وأهدافها ثالثاً ثم أشهر من يتبنونها ومن يروجون لها عالمياً على اعتبار أنها فكرة عالمية، وليس محلياً على اعتبار أننا نعتقد أن المروجين لها محلياً ليسوا ـ أكثرهم ـ يدركون ما تريد الوصول إليه بدليل «تبطينهم» لها بالمحلية أو بالصبغة المنهجية التي تتناقض معها أو تناقضها. ولأننا نعيش في مجتمع واضح الفكرة تطبق فيه تعاليم المنهج في مستوى شامل لا أستبعد رجوع الكثيرين من المحليين عن فكرة المعاصرة أو الحداثة بمفهومها الفكري الذي يسيطر على الساحة الفكرية الآن لا بمفهومها اللغوي الذي لا يناقض المنهج الإسلامي ولا يتعارض معه. ومصطفى هدارة يفرق بين المعاصرة والحداثة، ذلكم أن

المنهج الرباني لا يقف ضد المعاصرة أو الحداثة هكذا، ولكنه سيقف في طريق المفهوم الفكري لهذين المصطلحين لما يدعوان إليه من نبذ كل ما هو قديم أو أصيل أو تراثي بما فيه المنهج نفسه، وحينما يُطلق على هذا المنهج عبارة توحي بالتقييد والتعقيد والسجن وغيرها من الألفاظ السلبية التي لا تليق بالمنهج؛ لأنها لا تنطبق عليه.

والموقف من العربية لا يتوقع منه أن يأخذ منحى السبعينات والثمانينات الهجرية/ الخمسينات والستينات الميلادية، ولا يتوقع منه أن يأخذ منحى العشرات والعشرينات الهجرية/ الثمانينات والتسعينات الميلادية - إن صح أن يسمى هذا منحىً - ولكن الأولى أن ينظر إلى العربية لغة وأمة وفكراً على أنها تخدم منهجاً شاملاً هو البديل الوحيد لكل منهج موجود أو زائل أو سيوجد. وعليه فإذا التمس المرء العذر للآخرين الذين لم يعثروا على هذا المنهج أو عثروا عليه فهدد مصالحهم الشخصية، فإنه لا عذر لأولئك الذين يعيشون في المنهج ويبتعدون عنه. فإن كان هناك أزمة فهم فلا بأس من أن يمضي المرء وقتاً ليفهم، لكن أن يناصب المنهج العداء لأنه يجهله، أو لأنه يعيشه من خلال أفراد أساءوا تطبيقه وتقديمه للآخرين فهذا أمرٌ يحتاج إلى شيء من إعادة التفكير. ولأنني أعلم أن فكرة المعاصرة والحداثة لم تتبلور بعد وأن هناك مجموعة غير قليلة ممن يميلون إليهما لا يدركونهما تماماً، وأن هناك مجموعة غير قليلة ممن يقفون ضدهما يقفون وقفات عاطفية، وأن الذين يميلون إليهما - في معظمهم - سيعودون عنهما عندما يتضحان؛ لأنني أكاد أعلم هذا أجدني هنا أدعو إلى مزيد من الحوار الهادىء البناء تتاح فيه الفرصة للكل دون أن يكون اتجاه المجال مفتوحاً على حساب الاتجاه الآخر كما حدث في بعض اللقاءات الفكرية والأدبية السابقة. وكان الله في عون الجميع.

المتخرجون من مدرسة رمضان

لعل اليوم/ السبت/ يوافق احتفال المسلمين بعيد الفطر المبارك، إن لم يكن الاحتفال بالأمس الجمعة. وكان المسلمون قد أمضوا شهراً كاملاً في مدرسة رمضان حيث الدروس المكثفة/ وموادها: صيام، قيام، قرآن، زكاة، صدقة، تربية النفس، قهر الذات إلى غير ذلكم من المواد. والحق أن البعض قد تخرج من هذه المدرسة الوحيدة التي يرغب الناس التخرج منها دون تعثر أو إظهار التفوق، وإنما يظهر التفوق عندما تظهر النتائج النهائية وكشوف العلامات. وهذه تتأخر نوعاً ما. والبعض يخرج من مدرسة رمضان وهو يكنُّ في نفسه شيئاً من الرضا عندما يحاسبها فيجد أنه قد ختم قراءة القرآن الكريم، وتصدق في أكثر من موضع وحفظ جوارحه كلها من الانزلاق هنا وهناك، واقتصد في أكله وأكثر من القيام، ومع هذا كله فلم تتعطل مسؤولياته المعتادة كالعمل أو الدراسة أو البحث عن رزق الله.

ومع هذا الشعور بالرضا إلا أن النفس تتطلع إلى المزيد، فالمسلمون بعد الخروج من رمضان المبارك يدعون ربهم ستة أشهر القبول، ثم يدعون ربهم الستة الأخرى أن يبلغهم رمضان القادم ليعملوا بمواده أكثر مما عملوا في رمضان المنصرم. فرمضان المدرسة الوحيدة

التي يرتادها المسلمون كل عام ويتخرجون منها كل عام ولكنهم يعودون إليها ـ إن بقوا ـ في العام القادم يدرسون المواد ذاتها بشكل مكثف أكثر مما كان عليه.

ورغم أن حفلة التخرج تكون ذات بهجة يفرح فيها الكبير والصغير في يوم عيد يأكل فيه الناس ويشربون، إلا أنه يشوب هذه البهجة والفرحة شيء من الحزن على وداع هذا الشهر المدرسة، ولذا تجد البعض يصر على إتباع هذا الشهر بستة من شوال وكأنه في قراره نفسه يتمنى أن صام الدهر كله في نهاره وقام الدهر كله في ليله. ولكنها الحكمة التي تحجم الإنسان عن الغلو في مثل هذه العبادات الموقوفة بأحكامها، والحكمة تجعل لهذا الراغب في الصيام مجالات يواصل بها التردد على هذه المدرسة كالأيام البيض وأيام الإثنين والخميس وصيام يوم عاشوراء من محرم الحرام ويوم قبله أو بعده، وصيام يوم عرفة لغير الحاج، وهكذا يظل الراغب على صلة ودية ـ غير إلزامية ـ بالمدرسة الرمضانية.

شيء جميل حقاً أن تكون مواد مدرسة رمضان تدرس في كل مكان في بلاد المسلمين وغير بلاد المسلمين حيث الأقليات والجاليات المسلمة، والجميل أن مدرسة رمضان في بلاد غير المسلمين واضحة على الوجوه والقسمات، وقَلَّ أن تجد من المسلمين في هذه البلاد من لم ينخرط في المدرسة، ولكن هذا القليل مزعج حقاً ليس للمسلمين فحسب، ولكن لغير المسلمين الذين يدركون أن كل مسلم لا بد أن يحضر دروس رمضان، فتراهم يستغربون عندما يجدون فرداً أو أفراداً قد تخلفوا عن هذه المدرسة. وكان طالب من الطلبة المسلمين يحمل كوباً من القهوة في نهار رمضان فيقابله أستاذه غير المسلم ويسأله باستنكار ما هذا يا فلان؟ فيقول الطالب: لقد أكثرت من شرب الشاي فآثرت أن أشرب القهوة! فيرد أستاذه ما عن هذا سألت يا هذا. ألست مسلماً؟ فلا

يملك الطالب إلا أن يجيب بالإيجاب ومشروع قطرات من عرق الإحراج يبدأ يأخذ طريقه على جبهته. إذاً لِمَ أنت مفطر ما دمت مسلماً؟ يسأله أستاذه. فيسقط في يده ولا يكاد يحرر جواباً. وكان يظن أن أستاذه سيشجعه على الإفطار وترك الصيام لأولئكم ـ المحافظين ـ وتكون النتيجة أن يرمي هذا الشاب كوب القهوة ويعود في اليوم التالي وقد عاهد النفس على الرجوع إلى الله صياماً وقياماً وصلاة وتزكية نفس. فيدخل مدرسة رمضان من أوسع أبوابها بعد أن اهتز قليلاً.

وفي هذا دلالة على أن مدرسة رمضان لم تؤثر في المسلمين فحسب، بل إن غيرهم كان لهم نصيب من هذا التأثر، وكم كانت مدرسة رمضان سبيلاً من السبل التي انتهت بالآخرين إلى أن يسجلوا في موادها بداية انطلاقة نحو الهداية والوصول إلى الطريق الصواب. وإن لم يصل الأمر إلى هذا فكفى أن يحترم الآخرون هذه المدرسة وموادها وأن يتوقعوا من طلبتها الاستقامة والاعتدال والإخلاص مع النفس ومع الآخرين ما داموا قد أخلصوا في هذه المدرسة لله تعالى. ويذكر جيل لا يزال أفراده موجودين أن مديراً لمشروع من المشروعات الميدانية لم يكن مسلماً ويشرف على عاملين مسلمين علم بقدوم رمضان المبارك وكان الوقت حراً، فجمع عماله وتحدث إليهم عن أهمية المشروع وأنه لا ينبغي أن يعترض العمل به أية عوامل تعيق تقدمه، وما دام رمضان قادماً فإنه يتوقع أن يعوق رمضان سير العمل، ولذا فإنه يدعو إلى إفطار عماله ولا يملك إجبارهم على الإفطار، ولكنه سيجزل المثوبة للمفطرين مع نهاية عمل كل يوم، فتبادل العاملون النظرات، وأسقط في يد البعض منهم، ولكن البعض الآخر كان مصمماً على الانخراط في المدرسة مهما قلّت مثوبة رئيس المشروع.

وبعد استراحة نصف الدوام جمع رئيس المشروع عامليه وطلب من الصائمين أن يصطفوا عن يمينه ومن المفطرين أن يصطفوا عن شماله، ولم

يكن يتوقع أن يصطف عن شماله أحد، ولكنه وجد بعضاً منهم من أولئكم الذين آثروا مثوبة الرئيس على مثوبة رب الرئيس. وما كان من الرئيس إلا أن شكر الصائمين على إصرارهم على متطلبات دينهم، والتفت إلى المفطرين وطلب منهم مغادرة المشروع مطرودين، مؤكداً لهم أنهم ما داموا غير مخلصين من ربهم فلن يكونوا بعد هذا مخلصين مع أحد من العاملين، وكانت المضاعفة في المكافأة قد ذهبت إلى أولئكم الصائمين. وهذا درس آخر من دورس رمضان تخرج منه أناس وأخفق فيه آخرون، درس جاء من طريق غير مباشر من أولئكم الذين يتمنون أن يستفيدوا أكثر من مدرسة رمضان ولكن تحول دون ذلك عوامل خارجية أخرى.

ولعل من مواد مدرسة رمضان تلكم المادة المكثفة المتوقعة في ليلة السابع والعشرين من رمضان حينما يجتمع المسلمون في المساجد والجوامع يترقبون أن يكون لهم نصيب من النجاح في هذه الليلة، وفي الحرمين الشريفين يجتمع أكثر من مليوني مسلم في وقت واحد وبنظام واحد وخلف إمام واحد. مشهد رائع وعجيب لا يملك من يشهده من قريب أو بعيد إلا أن يذرف تلكم الدمعة النادرة التي توحي بقوة العلاقة بمن جمع هؤلاء جميعاً في مكان واحد. تلكم الدمعة التي تتطلع إلى أن يجتمع أكثر من هؤلاء بحيث يصل العدد إلى البليون/ المليار تحت قيادة إمام واحد، فالقادر على جمع هذين المليونين وراء إمام واحد قادر على جمع المليار وراء إمام واحد.

وهنالكم مجموعة أخرى من الدروس والمواد في هذه المدرسة الفريدة، والسعيد من سجل بأكبر قدر من مواد هذه المدرسة وأعطاها حقها من العمل وترك هم الإجابة وفوض الأمر للمجيب، وكان عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ يقول: إنه كان يحمل هم الدعاء ولم يكن يحمل هم الإجابة. جعلنا الله وإياكم من المقبولين، وكان الله في عون الجميع.

مع الذين يستيقظون في الظلام!

يروي الشيخ سيد سابق أنه كان في مدينة أوروبية يحاضر في أحد المراكز الإسلامية هناك عندما ظهر عليه وعلى من معه مجموعة من القسس واجتمعوا بالقائمين على المركز وعرضوا عليهم أن يسلموهم الكنيسة التابعة لهم ليحولوها لمسجد ينشرون من خلاله دعوة الإسلام. لم يقف العرض عند هذا الحد، ولكنه تعداه إلى أن يطلب هؤلاء القسس من القائمين على المركز أن يهتموا بأولاد النصارى هناك ويربوهم تربية إسلامية صالحة، وكانت حجة هؤلاء أن كنيستهم قد فشلت في أداء هذه المهمة فاختلط عليهم أبناؤهم فلم يعلموا بعد منهم الذكر من الأنثى في ظاهر القسمات والتصرفات. خطوة كهذه لم تأت نتيجة خاطرة مرت على قس واحد فجمع أصحابه واتجه إلى المركز الإسلامي يعرض عليه ما عرضه، لكنها فكرة طال التفكير فيها واتبعت أساليب متعددة قبل الإقدام على هذه الخطوة في سبيل عدم الإقدام عليها، ولكن الذي يبدو أنه لم يكن هناك حل أفضل من أن تسلم الكنيسة على ما ترمز إليه إلى المسلمين ليحولوها إلى مسجد على ما يرمز إليه.

في إحدى قنوات التلفزيون الفرنسي يستضيف برنامج مقابلات رجلي دين من المسيحيين فيناقش معهما مقدم البرنامج مجموعة من

المشكلات التي تعترض شباب فرنسا اليوم ـ وبالمجمل شباب أوروبا ـ، وينتهي مقدم البرنامج إلى السؤال عما إذ كان لدى هذين القسيسين حل لبعض هذه المشكلات ـ إن لم يكن لمجملها أو كلها ـ ولكن الرجلين يجيبان بالنفي والحسرة تبدو عليهما، ثم يسأل عما إذا كان هناك حلول مطروحة على الساحة يمكن من خلالها إنقاذ الأمة مما هي فيه، فيجيب الرجلان بأن الحلول موجودة في الإسلام!

وفي مدينة من مدن أمريكا يقوم مسجد ـ لعله أسس على التقوى ونحسبه كذلك ـ برنامج يومي لطيف وهادىء، يعمد المسجد إلى تقديم وجبة غذاء ـ وهي عادة خفيفة ـ لأطفال المسلمين، أولاً، ثم بدأ أطفال غير مسلمين يترددون على المسجد وقت الظهيرة، وكان يصحب الغذاء حديث ـ على مستوى الأطفال ـ عن الإسلام، فصار الأطفال غير المسلمين يكتسبون من هذا الحديث شيئاً، وخاصة أنه يركز على جوانب يراد من الطفل الذي لم يصل العاشرة من عمره أن يتسم بها أو يبتعد عنها. وتوقع البعض من القائمين على هذا البرنامج أن يخف توارد الأطفال غير المسلمين إذا علم أهلهم ما يصحب وجبة الغذاء من وجبة دينية، ولكن الذي يبدو أن الأطفال يزدادون يوماً بعد يوم، بل إن أهلهم بدأوا يرتادون صالة الطعام مع أطفالهم، لا ليأكلوا ولكن ليشرفوا على البرنامج ويقابلوا القائمين عليه ليشكروهم على شيء من التحول في السلوك بدا على أولادهم. فيسأل أحد القائمين على البرنامج، وهو ذلكم الذي توقع أن يخف توارد الأطفال هؤلاء، يسأل الأهل عما إذا كان قد دار في خلدهم أن هناك إمكانية في تحول هؤلاء الأطفال إلى الإسلام على المدى البعيد، ويجيب بعض الأهالي بأن ذلك وارد لا شك فيه ويدعون القيِّمين على هذا المسجد إلى العمل على تثقيفهم إسلامياً في سبيل الوصول إلى قناعة تامة تجعلهم يعلنون إسلامهم، فهم هنا لا

يخافون على أولادهم دخولهم في الإسلام، ولكنهم يخافون على أنفسهم عدم دخولهم في الإسلام!

هذا على المستويات الاجتماعية العامة، أما على المستويات الاجتماعية الخاصة جداً مثل تلكم التي يكون ميدانها البيت، فإن كثيراً - أو نسبة لا بأس بها - من شباب المسلمين الذين يتغربون في أوروبا وأمريكا يعمدون إلى الزواج من بنات أهل البلاد وغالباً ما يكن غير مسلمات، وبغض النظر عن الدوافع الأخرى لهذا النوع من الزواج، فإنه ينتهي بقيام علاقة متينة بين شخص مسلم هو الرجل وآخر غير مسلم هو المرأة. فيثير هذا شيئاً من عدم الارتياح الروحاني لدى المرأة ولدى الرجل في غالب الأحيان مهما كان الرجل بعيداً عن ممارسة دينه والقيام بالفروض والواجبات عليه، ومن هنا تبدأ مرحلة في البحث عن أسلوب للتلاقي الروحاني غالباً يأتي عن طريق المرأة، فتنهال الأسئلة على الرجل ليجيب عنها بما يعلم، وغالباً تكون معلوماته عن الأصول واضحة ولكنه يتعثر أحياناً في الوصول إلى أجوبة حساسة في الفروع وفي مسألة نظرة الإسلام لقضايا مصيرية مثل منزلة المرأة وتربية الأطفال والنظرة الإسلامية للاقتصاد والسياسة والعلاقات الإنسانية الأخرى. يجيب الرجل بما لديه ولكنه لا يقتنع فيحس بهذا التقصير، ويوحي بذلك لمن حوله من المسلمين فيدلونه على بعض المعلومات التي تشبع رغبته، والنهاية أن المرأة تبدي رغبتها في الدخول في الإسلام فتكون سبباً في هداية زوجها ودافعاً له إلى العودة إلى دينه فيرتاد المساجد والمراكز الإسلامية، وقد حدث مثل هذا في مركز إسلامي في مدينة ألمانية. وكان يعقد في هذا المركز ندوة إسلامية حضرها مجموعة غير يسيرة من الشباب المسلمين، فتأتي امرأتان يبدو عليهما شيء من الارتباك والحياء وعوامل أخرى داخلية فتسألان عن المسؤول عن المركز فتدلان عليه لتعلنا إسلامهما وتبينا أنهم

تحت قوامة رجلين مسلمين. ويأتي الرجلان ويحضران شيئاً من الندوة ويبدو لهما ما لم يكن قد رأياه من قبل، وكون هذه خطوة أولى في طريق العودة إلى الله. وهذا الحديث لا يغفل وجود نوعيات من أبناء الإسلام تصر على عدم العودة إليه وتقدم في سبيل ذلك صوراً مغلوطة غير واضحة عن الإسلام، ولو وقع هؤلاء في أيدي أولئك الذين يعرفون الحق كان لهم شأن آخر؛ لأن المرء مهما شط عن طريق الفطرة إلا أنه لا بد أن يعود إليه ما وفق إلى من يقدمه له على حقيقته صورة واضحة جلية. وهذا الحديث لا يغفل أيضاً وجود نوعيات من الزوجات يكون تأثيرها الروحاني على زوجها أكثر من تأثيره عليها، ويبدو ذلك واضحاً في مصير الأطفال الذين يتربون على يديها، بغض النظر عن استمرار العلاقة الزوجية بين الأبوين أو عدم الاستمرار؛ لأن القانون الغربي يقف هذه الناحية في صف المرأة.

وإذا كان الحديث هذا لا يغفل هذه الجوانب فإنه محاولة لإبراز جوانب مضيئة قد لا يراها الكثيرون في مجتمعات يستبعد البعض أن تقع فيه.

وهذا ربما جر إلى المستويات العلمية التي تشهد بين الفترة والأخرى دخول بعض فطاحل علماء الغرب وفلاسفته في الإسلام أو لنقل على أقل تقدير تفرض بعض المواقف احترام هؤلاء العلماء للإسلام مما يكون سبباً غير مباشر لدخول الغير في الإسلام. يذكر أن مدير الغرف الصناعية في ألمانيا الاتحادية دعا إلى الأخذ بالنظام الاقتصادي الإسلامي لبنوك أوروبا وأمريكا وبنوك العالم ومؤسساته المالية. جاء ذلك بعد ندوة عقدت بين علماء الاقتصاد الإسلامي وعلماء الاقتصاد الغربي. والنتيجة أن الذين يستيقظون في الظلام - كما يحلو للشيخ محمد الغزالي أن يسميهم - ويرون نور الروح يزدادون يوماً بعد يوم وعلى مختلف

مستوياتهم الثقافية والفكرية والعلمية. وفي المقابل فإن أولئك الذين ينامون في النهار ينقصون يوماً بعد يوم كلما أتيح لهذا الدين رجال يبرزونه للآخرين على حقيقته التي جاء عليها، ورجال يقفون بما أوتوا من سعة في الرزق وراء المشروعات العلمية الإسلامية شرقاً وغرباً يرعونها ويعمرون مساجدها ويفتحون مدارسها ويتبنون مؤتمراتها وندواتها. ورجال يقفون بما أوتوا من سعة في العلم والفكر والثقافة وراء النشاط الفكري والعلمي والثقافي الذي تتمخض عنه مثل هذه المشروعات. فكان الله في عون الرجال، وكان الله في عون الجميع.

المسلمون ـ العدد ٧٩

٤/ ١٢/ ١٤٠٦ هـ الموافق ٩/ ٨/ ١٩٨٦ م

وقفة مع الباحثين عن الحقيقة..

إن البحث عن الحقيقة أمر صاحب الإنسان منذ أن خلقه الله ـ تعالى ـ. ويذكر عند الحديث عن الحقيقة أن أحد فلاسفة اليونان كان يحمل في النهار مصباحاً مضاءً، فلما سُئِل عن سر هذا التصرف غير المعتاد من العاقلين أجاب بأنه كان يبحث عن الحقيقة! ولكن ما تلك الحقيقة التي كان يبحث عنها ذلك الرجل؟ هل كانت حقيقة الوجود؟ أم كانت حقيقة نهاية هذا الوجود؟ أم هي حقيقة هذا الكون وما فيه من مجموعة من الخلائق التي تسير بأسلوب بديع حكيم؟

والذي يبدو أن الإنسان قد طبع على البحث عن الحقيقة. وقد بحث إبراهيم ـ عليه السلام ـ عن حقيقة إحياء الموتى، فسأل الله أن يريه كيف يحيي الموتى: ﴿**وإذ قال إبراهيم: رب أرني كيف تحيي الموتى. قال: أولم تؤمن؟! قال: بلى، ولكن ليطمئن قلبي..**﴾ [من الآية ٢٦٠ من سورة البقرة]. وقد تطلع موسى ـ عليه السلام ـ إلى أن يرى الله حقيقةً ـ أي يرى ذاته ـ وذلك بعد أن آمن بحقيقته وذاته: ﴿**قال: رب أرني أنظر إليك. قال: لن تراني، ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني**﴾ [الآية ١٤٣ من سورة الأعراف]. وذات الله حقيقة ولكنها لا تدرك مباشرة: ﴿**لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير**﴾ [الآية ١٠٣ من سورة

الأنعام]. وعدم إدراك ذات الله ـ سبحانه وتعالى ـ مباشرة لا تعني عدم إدراكه ـ تعالى ـ من حيث وجوده من خلال مجموعة كثيرة من الآيات التي تدل على وجوده ـ تعالى ـ. ولكن بعض العقول قد ترفض هذا الإدراك غير المباشر؛ لأنها لم تكلف نفسها التفكير بهذا الاتجاه فتطلعت إلى أكثر من ذلك.

فإذا كان الإنسان قد طبع على البحث عن الحقيقة كما كان يبحث عنها ذلك الفيلسوف فقد كفينا نحن الإجابة عليها منذ آلاف من السنين، نقلها إلينا الأنبياء والمصلحون عن طريق الوحي بالنسبة للأنبياء والأتباع بالنسبة للمصلحين. ولم يأت أحد من عنده بجديد، وذلك لأنه لا يستطيع أحد أن يأتي من عنده بجديد في مجال الحقيقة. وأن يرفض البعض هذه الإجابات عن الحقيقة عن هذا الطريق ويبحث عن غيرها عن غير هذا الطريق فهو يعلن على نفسه وعلى من أراد أن يعيش في محيط الشقاء والتعاسة؛ لأن الذي يبدو أن هناك تطلعات وأسئلة عن الحقيقة يتعذر على المرء إدراكها مجرداً من إلهام خارج عن هذا العقل المحدود.

وعندما يتحدث المرء عن محدودية العقل عن إدراك كل شيء حوله فإنه لا يعني ذلك قصوراً عن وظيفة العقل التي خلق العقل من أجلها، ولكنه يعني أن العقل يذهب أحياناً إلى أكثر مما يراد منه. وهنا يبدأ المرء في عدم الاستقرار العقلي والروحي إلى أن يقتنع بالحقيقة التي جاءت عن طريق الأنبياء والمصلحين، أو يستمر في بحثه هذا منفرداً فلا يجد الحقيقة مهما طال به البحث ولعل هذا مما يبرر موقف الإسلام في جانب العقيدة من الفلسفة عموماً ومن الفلسفة اليونانية خصوصاً لما جرته هذه الفلسفة من عدم استقرار عقدي لأولئك الذين نصبوا من أنفسهم باحثين عن الحكمة، ومن البحث عن الحكمة البحث عن الحقيقة.

ولعل من الذي يجعل البعض لا يكتفي بالإجابات عن الحقيقة التي

جاء بها المرسلون أن هذه الإجابات تستلزم من المقتنع بها أن يُتبع هذا الإقناع (الإيمان) بما يثبته في عالم من المحسوسات. ولذلك قال علماء العقيدة عن الإيمان إنه ما وقر في القلب وصدقه العمل، فلا يكفي أن يؤمن القلب فقط. والتصديق بالعمل أمر قد يأباه غرور الإنسان. ولذا ترى البعض يعرض عن تلمس الإجابة على أسئلة كثيرة عن هذا الطريق فيحرم قسطاً كبيراً من الطمأنينة لا يكاد يحس به إلا أولئك الذين عرفوا الحق عن هذا الطريق.

ويخطىء البعض عندما يغفل العقل في كل شيء حتى ليصبح في تعداد الإمّعات. وهذا الصنف مناقض تماماً لصنف ذلكم الرجل الذي حمل مصباحه مضاءً في وضح النهار. فالأول معطِّل للعقل تماماً، والآخر حمَّل العقل فوق طاقته التي أُتيحت له، فضلَّ هذا وتاه ذاك.

وبمعزل عن تلمس الحقيقة من منبعها الوحيد وهو الوحي الإلٰهي، يؤدي البحث عنها بكثير من الباحثين إلى أن يخرجوا من هذا البحث بنتائج كان أقل ما يمكن أن يقال عنها أنها مجموعة شطحات عقلية أودت بأصحابها إلى بعض التصرفات «غير المعقولة» في نظر كثير من العاقلين، وقد ظهر في فرنسا في الآونة الأخيرة فيلسوف بحث عن حقيقة الحياة والوجود فوجد أن حقيقة الحياة والوجود تتلخص في الموت فقط!

فالإنسان عند هذا الفيلسوف إنما خلق ليموت، وعليه فإن الإنسان لا يملك من هذه الحياة إلا أن يختار الطريقة المثلى للموت. وفي سبيل أن يحقق هذا الهدف عمد الفيلسوف إلى أن يختار لزوجته طريقة مثلى للموت بأن قضى عليها وهي على فراش النوم آمنة مطمئنة. وهذا ربما يوحي أن هذه الطريقة المثلى إنما هي في نظر الفيلسوف فقط، وهناك طرق مثلى أخرى في اختيار الموت لمن يعزون على أصحاب هذه الفلسفة، كأن يرمي شخص بمن يحب من شاهق أو يصعقه بالكهرباء، أو

يعرضه لغازات سامة، فاختيار الطريقة المثلى أمر نسبي خاضع لنظرة الشخص لأمثل طريقة!

والذي قد يتبادر إلى ذهن أي سامع لهذه الحادثة ـ أو النظرة الفلسفية للحقيقة والحياة ـ السؤال عن السبب وراء عدم تطبيق هذه الفلسفة على صاحبها أولاً بدلاً من أن تكون ضحيتها امرأة مسكينة لم يكن لها من الذنب ـ على ما يظهر ـ إلا أن تكون زوجة لهذا الفيلسوف؟!

قد يجيب الفيلسوف نفسه على هذا التساؤل بأنه قد آثر زوجته ـ ولو كان به خصاصة ـ بهذا الأسلوب في اختيار أفضل طريقة للموت؛ لأنه قد أحبها فقدمها على نفسه (ومن الحب ما قتل!!). ولعل الرجل لم يجد الشجاعة ـ ولن يجدها ـ لتطبيق فلسفته على نفسه، ولعله كذلك لم يجد القناعة التامة بهذه الفلسفة، تلك القناعة التي تجعله يبدأ بنفسه. ولا يتبادر إلى الذهن أن الرجل أراد من هذه الفلسفة أن تعم فبدأ باختيار مجموعة ممن أحب ليختار بعد ذلك الطريقة المثلى للقضاء عليهم، وذلك أن الرجل قام بتسليم نفسه حالما انتهى من تطبيق فلسفته على زوجته إلى أقرب مخفر للشرطة، واستسلم لأي حكم يترتب على فعلته التي فعل مع زوجته دون محاولة للدفاع المستميت في سبيل إقناع الآخرين بأن ما عمله هو عين الصواب، وأنه الهدف الأسمى من الحياة. والحق أن الرجل لم يكن سهلاً على فرنسا، فقد وصل أمره إلى رئيس الجمهورية حينئذٍ ـ جيسكار ديستان ـ فقال: إن تأكد ما تذكرون فعار على فرنسا أن يحبس عقلها! أدخلوه مستشفى الأمراض العقلية.

والذي يبدو أن هذا الرجل كان ينشر اكتشافه لحقيقة الحياة على من حوله من الجانب النظري، وقد حذا حذوه شخص أكاديمي آخر ـ ومع الأسف الشديد ـ في إحدى الجامعات العربية فتأثر بفلسفته هذه، واختار

لوالديه ذات الطريقة التي اتبعها أستاذه مع زوجته، ونال ذات المصير الذي ناله أستاذه من قبله.

ذلكم كان منطلقاً واحداً أخيراً من منطلقات عدة يبحث عن الحقيقة، فجعلت من العقل وحده أداة للبحث عنها مجرداً من العوامل المساعدة التي تختصر طريق البحث وتجعل من الإنسان ـ مهما كان قدره في المجتمعات ـ عضواً فعالاً فعالية إيجابية مع هذه المجتمعات همه البناء وتحقيق العبودية لله وحده من حيث كونها قمة الحقيقة وقمة أهداف هذا الوجود، بل هي الهدف الرئيسي الذي تدخل تحته أهداف أخرى تعين إلى الوصول إليه، وتلكم هي الحقيقة التي ساندها العقل وأوحت بها المحسوسات، وبعثت بها الطمأنينة والاستقرار في عقول وقلوب الكثيرين ممن اقتنعوا بها، وترجموا هذا الاقتناع إلى عمل. فكان الله في عون الجميع.

المتطيرون.. ووقفة مع المنتحرين!

جلس مجموعة من الغربيين وبينهم البريطاني والفرنسي والأمريكي والإيطالي والألماني والبرازيلي والأيرلندي والتشيكي في يوم الجمعة الثالث عشر من شهر ديسمبر من عام ١٩٨٥ م. وهذا اليوم بالنسبة للكثيرين يعتبر من «أشأم الأيام»؛ لأنه يوافق الثالث عشر من الشهر، وعليه فإن إحدى الصحف الأوروبية السطحية حذرت بالخط العريض وفي صفحتها الأولى من هذا اليوم وذكرت أن نسبة الحوادث فيه سوف تزيد على ٥٠٪ من معدل الحوادث لأيام الجمع المعتادة. ويوم الجمعة هناك ـ كما تعلمون ـ هو بداية عطلة نهاية الأسبوع، حيث تمتلىء الخطوط البرية السريعة بمجموعات من المسافرين.

قال أحد هؤلاء الشباب المجتمعين لصحبه أقرأتم الصحيفة المذكورة، فأجاب آخر إنها صحيفة «سوقية» لا تستحق ثمنها، فوافقه الأول على ذلك. وذكر لهم أنه قرأ فيها التحذير من مغبة يوم الثالث عشر، وقد نشرت الصحيفة تقريراً من هيئة خدمات الطرق توضح فيه إمكانية ارتفاع معدل الحوادث في ذلك اليوم.. فقاطعه ثالث قائلاً: إنه مجرد التفكير في هذا اليوم هو العامل الوحيد في زيادة الحوادث. فعندما يحس المرء أن شيئاً ما غير عادي ربما يحصل له في هذا اليوم، فإنه في

الغالب يحصل له شيء غير عادي. فإذا كان يقود السيارة ـ مثلاً ـ وقد وضع في مخيلته هذا التوقع فإنه يجعل نفسه في حالة متوترة وأعصابه في قلق شديد يؤديان به في النهاية إلى أن يرتبك في قيادته للسيارة فيسبب في حادث. وليس هناك مبرر لهذه الزيادة غير هذا الإحساس، وأردف الثالث يقول.. إن اليوم الثالث عشر كغيره من الأيام لا يخبىء وراءه نشاطاً غير عادي، وكان تأويله هذا موضع قبول لدى الكبار من الجالسين. إذ تحولت الجلسة إلى النظر في مجموعة من المعتقدات الأوروبية التي جعلت من أشياء ومخلوقات وأحداث مبعثاً للتشاؤم وسوء الطالع أو سوء الحظ. وجلسوا يعدون هذه الجوانب حتى أوصلوها إلى اثنتي عشرة حالة إذا حلت بشخص فإن حظه لا بد أن يعتريه السوء، ومن ذلكم البومة مثلاً والقط الأسود، وفسروا القول في القط الأسود بأنه إذا مر بك من الجهة اليمنى متجهاً إلى اليسرى فإن هذا علامة سوء، أما إذا مرَّ من الجهة اليسرى متجهاً إلى اليمنى فأبشر بحظ طيب. من ذلك أيضاً وجود المظلة مفتوحة في المنزل، والمرور من تحت السلم الموقوف، والنظر في مرآة مكسورة، ومرور غراب أسود، ورؤية العنكبوت في المساء، ونثر الملح على طاولة الطعام، ووجود مقص مفتوح أو تركه مفتوحاً، ووضع الشوكة والسكين على بعضهما بشكل متقاطع، ويوم الجمعة السابع عشر من الشهر عند الإيطاليين.

ولم يكن بين الجالسين إفريقيون أو آسيويون ليزيدوا في حصيلة ما يدعو إلى سوء الحظ، وكان بينهم ثلاثة من العرب لم يذكر واحد منهم شيئاً واحداً يضيفه إلى ما أضافوه لأنهم لا يملكون في ثقافتهم ما يدعو إلى التشاؤم وسوء الطالع، بل إن أحدهم أصر على أن ثقافتهم تنهاهم عن الاعتقاد بمثل هذا، فما كان من أحد الأوروبيين إلا أن قال مازحاً، إن ثقافتكم كلها تدعو إلى التفاؤل ما دمتم لا تملكون ما يدعو إلى عكس

ذلك حتى في تقاليدكم التي لا تنتمي إلى الثقافة والخلفية التي تعتقدونها. فأجاب الشاب العربي بشيء من الحذر أن ما يقوله حق من جهة أننا ننظر إلى الأحداث كلها بعين متفائلة حتى ما يبدو منها لنا أن فيه شراً فلعل أن يكون فيه خير كثير. ومع هذا فإنه ليس لدينا في ثقافتنا علامات تدل على جلب الحظ خاصة الجوانب المحسوسة مثل تلك التي سردتموها على أنها دليل لسوء الطالع. فالذي أعلمه أنكم تستخدمون «حدوة» الحصان دليلاً لجلب الحظ أو رد المكروه. فأجاب أحد الأوروبيين قائلاً هذا ما تعلمه، ولكن لدينا أكثر من حذاء الحصاء مما يجلب الحظ ويرد المكروه، فنحن نتفاءل بظهور أول نجم في السماء، ونتفاءل حينما يجد الواحد منا قطعه نقود صغيرة جداً، كالسنت والبنس والهللة ونحوها. وقدم الأرنب يحمله بعضنا في جيبه، والنجم الهاوي علامة خير، ومرور راهبة وخباز وأحدب (في آن واحد) مدعاة إلى الفرح، ومرور ثلاث راهبات كذلك، ورؤية نوعية خاصة من «الخنافس» لونها أحمر مرصعة بالسواد، ووجود ثلاثة أزرة خشبية، والمرور بمنظف مداخن البيوت، وأخذ قليل من سواد الفحم المتعلق بثيابه ومسحه على الأنف، ووجود أو الحصول على غصين من شجرة القرنفل مكون من أربع ورقات. وأخرج أحدهم واحدة من محفظته، وأخرج آخر رجل أرنب مصبوغة بالأزرق، وأخرج ثالث محفظته وقد رسمت عليها حذاء حصان. وفي إيطاليا مثلاً يذهبون بك إلى نافورة في روما فتجد النافورة وقد ملئت بالنقود الصغيرة، فتسأل ويجيبونك أنها تجلب الحظ وهي مدعاة إلى أن تعود إلى روما مرة أخرى. والعجيب أن يقاطع أحدهم قائلاً إننا قطعنا شوطاً كبيراً في مجال التحضر، ولكننا من الداخل لا نزال لم نتحضر بالمعنى الحقيقي للحضارة. وكانت كلمة من هذا الشاب يبحث عنها الكثيرون ممن يحاول إبراز الوجه الآخر للحضارة الأوروبية. ذلكم الوجه الذي لا يراه إلا القليلون، ويبقى المسلم بحضارته الصافية هو المتحضر الحقيقي.

والجانب الأول نسميه نحن التطير، وهو ما يدعو إلى التشاؤم، وكانت نماذج منه موجودة قبل الإسلام، ولا تزال نماذج منه موجودة في بعض المواطن التي خيم عليها الجهل حيناً من الدهر ويحاول الناس هناك أن يتخلصوا منها.

الانتحار بالأرقام!

في المستخلصات الإحصائية للولايات المتحدة الأمريكية لعام ١٩٨٤ م، ورد جدول عن الانتحار في العالم ونسبته بين كل مئة ألف مواطن، فاحتلت الدانمرك المرتبة الأولى، حيث ينتحر سنوياً من كل مئة ألف مواطن دانمركي ٢١,٣ شخصاً من النساء، و٣٨,٨ شخصاً من الرجال (٦٠,١) من المجموع. وإذا كان سكان الدانمارك قد وصلوا إلى (٥,١٣٠,٠٠٠) نسمة، فإن هذا يعني أن عدد الذين ينتحرون سنوياً يصل إلى (٣١٣٤,٤٣) شخصاً. . وتأتي النمسا في المرتبة الثانية حيث يقضي على حياته فيها حوالى (٤١٨٨,٥٩) من إجمالي عدد السكان. وفي المرتبة الثالثة تأتي ألمانيا الغربية بمجموع قدره (٢٧١٠٤) من مجموع عدد السكان البالغ عددهم (٦١,٦٠٠,٠٠٠) نسمة. ثم تأتي في المرتبة الرابعة سويسرا حيث يصل عدد المنتحرين فيها إلى (٢٦٦٨,٥١) شخصاً.

وفي الخامسة السويد التي احتفلت العام الماضي بموت آخر أمي فيها، حيث أصبحت نسبة الأمية ٠٪، ينتحر فيها سنوياً (٣٢٤٤,٢٦)، وكانت السويد إلى عهد قريب تحتل المرتبة الأولى في نسبة الانتحار فيها. وفي المرتبة السادسة نجد اليابان ـ الدولة غير الأوروبية الوحيدة التي وصلت إلى مرتبة في العشر الأول في هذا الميزان، ويستعجل الموت فيها سنوياً ما يصل إلى (٤١٨٩٨,٦٣) شخصاً، أما فرنسا فلها المرتبة السابعة إذ تخسر من مواطنيها عن طريق الانتحار حوالى (١٨٩٤٧,٥٩) شخصاً،

ثم كندا في المرتبة الثامنة إذ تساهم في هذه الظاهرة بما مجموعه (٧٣٧٠) شخصاً لكل عام، وبولونيا الدولة الأوروبية الشرقية في ترتيب العشر الدول الأول جاءت في المرتبة التاسعة بمجموع قدره (٩٣٦٥,٤) شخصاً ينفذون الانتحار فيخونون الأمانة التي أريد لهم أن يحملوها، ويختارون أسوأ طريق ينهون فيه حياتهم.

والواضح هنا أن هذه الأرقام متفاوتة تماماً بحيث لا تدل على الترتيب الذي وضع لها هنا، ولكن الدراسة الإحصائية الدقيقة لا تنظر إلى عدد المنتحرين بالنسبة لعدد السكان الإجمالي وإلا لكانت الولايات المتحدة الأمريكية تحتل المرتبة الأولى، ولتراجعت الدانمارك إلى التاسعة في هذا المجال، ولكن الدراسة تنظر إلى عدد المنتحرين عن كل مئة ألف من السكان (١٠٠,٠٠٠) وعلى هذا يكون الترتيب كما يلي:

الدولة	من كل ١٠٠,٠٠٠ نسمة
١ ـ الدانمارك.	٦١,١
٢ ـ النمسا.	٥٥,٥
٣ ـ ألمانيا.	٥٥
٤ ـ سويسرا.	٤١,٨
٥ ـ السويد.	٣٨,٩
٦ ـ اليابان.	٣٥,٣
٧ ـ فرنسا.	٣٤,٧
٨ ـ كندا.	٢٩,٦
٩ ـ بولندا (بولونيا).	٢٥,٨
١٠ ـ الولايات المتحدة.	٢٤,١

وهذا الجدول ليس إلا إعادة ـ بأرقام مختلفة ـ لما ذكر قصداً إلى توضيح الترتيب فقط، وقد يعتقد أن نسبة الانتحار بين الرجال أكثر منها بكثير بين النساء، ولكن الإحصائية هذه تشير إلى أن الفرق غير كبير جداً، وهي لم تحسب الفرق تماماً؛ لأنها إحصائيات مختصرة جداً، ولكن عند حسابها يجد المرء أن نسبة الرجال لا تزيد على ٥٧,٦١٪ من العدد الكلي، وهذا معناه أن نسبة النساء قد وصلت إلى ٤٢,٣٩٪، والمعروف عن المرأة في طبيعتها أنها أكثر تحملاً من الرجل في كثير جداً من الحالات التي تتطلب التحمل والضغط على الأعصاب، حتى ليقال أنه لو وضع رجل وامرأة في أرض باردة وجُرِّدا مما يدفئهما لاستسلم الرجل قبل المرأة بكثير، وهذا تحمل مادي فكيف بتحمل نوائب الدهر. وهناك أقوال كثيرة في هذا المجال لم تكتسب العلمية البحتة ولذلك نفضل عدم الخوض فيها لئلا نبخس الناس أشياءهم.

كما أن الإحجام عن التوسع في شرح هذه الظاهرة واقتصارها على دول أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية ما عدا اليابان وبولونيا، لعل الإحجام ذلك أفضل من التوسع فيه؛ لأن الأرقام هذه تنبىء عما وراءها وتبرز وجهاً آخر من الوجوه التي نحاول التركيز عليها متوخين في ذلكم الموضوعية ما أمكن.

اللافت للنظر هنا أن الدولة الصهيونية في فلسطين المحتلة جاء ترتيبها الخامسة عشرة من مجموع ست عشرة دولة مرتفعة فيها نسبة الانتحار، وينتحر في هذا الكيان المحتل سنوياً حوالى ١٢ شخصاً من كل مئة شخص، نسبة كبيرة منهم ممن تخطوا الخامسة والستين من أعمارهم ـ رجالاً كانوا أو نساء ـ إذ ينتحر حوالى عشرين شخصاً من كل مئة ألف شخص ممن تجاوز سن الخامسة والستين، وكأن هؤلاء قد نسوا أرض الميعاد، أو لم يجدوا فيها السمن واللبن والعسل، وهم جميعاً من اليهود

كما نبهت إلى ذلك الإحصائية المذكورة، ترى لو أجريت إحصائية على البلاد الإسلامية كيف ستكون الأرقام؟

الجزيرة العدد ٤٨٦٧

السبت ١٥ جمادي الأولى ١٤٠٦ هـ الموافق ٢٥ يناير ١٩٨٦ م

عندما يموت الفنان!

الفنان بشر يستهويه الفن.. ويجد من يشجعه عليه.. بعض الفنانين يتورط في البداية.. فيجد من الصعوبة أن يتخلص.. يبحث عن الشهرة في البداية.. فيتضايق منها ويحس أنها نوع من القيد الذي يتحكم في حياته حتى في منزله وبين خصوصياته.. يحدث خلاف بينه وبين أهله.. قد ينتهي إلى الفراق.. وهو بشر.. فالفراق عنده جرح.. يقول البعض: إنه كلما كثرت جروح الفنان.. كلما استطاع أن يطرب أكثر.. وعليه فلا بد أن تكثر جروح الفنان.. فالناس يهمهم أن يطربوا.. والشركات يهمها أن تنتج.. والفائدة لا بد أن تتضاعف وتستمر.. وهذه أنانية بعض الناس.. الذين يعيشون على معاناة الآخرين.

والفنان بشر.. لا نستطيع أن نعمم فنقول إنه مرهف الحس أكثر من الإنسان العادي.. فالفنان إنسان عادي.. وفي الناس العاديين من هم أكثر إحساساً من أي فنان.. ولكن هؤلاء الناس العاديين يرفضون أن يعبروا عن رهافة الحس عندهم عن طريق الطرب.. قد يعبر عنه البعض عن طريق الرسم.. ويعبر عنه آخرون عن طريق النحت.. وفئة تعبر عنه عن طريق الشعر.. أو القطع النثرية أو البعض يكتفي في التعبير عنه في المجالس.. وفئة تحبسه وتحتفظ به داخل الوجدان.

الفنان.. والحس:

وقد يكون بعض الفنانين عديم الإحساس.. وإنما ساقه إلى الفن آلية وجدها في نفسه من طلاوة في الصوت أو حسن في المظهر.. أو علاقة قوية بمن لهم نفوذ في عالم الفن.

الفنان.. والشهرة:

والفنان بشر يعجبه أن يثير الانتباه.. وأن تسلط عليه الأضواء.. وأن تحتل صورته مكاناً في الصحافة.. وأن يحتل صوته مكاناً في الإذاعة والتلفزيون.. وأن يتسابق عليه المعجبون يدعونه إلى إحياء حفلة هنا.. ومناسبة هناك.. ولا يكاد يجلس في مجلس إلا ويطلب منه أن «يتحف» الحضور بصوته الشجي.. ونغمه المؤثر.. حتى عُدَّ فاكهة هذه المجالس.. وهو يظن أنه إنما دعي إليها ليُطرب من فيها..

والفنان بشر يعتريه الضعف.. يمرض كما يمرض الناس.. ويتعب كما يتعب الناس.. ويسأم كما يسأم بعض الناس.. ويحتاج إلى العزلة أحياناً.. يقف فيها مع نفسه يبدأ معها الحساب.. فيقرر أن يتخذ خطوات إيجابية مع نفسه.. ولكنه قد يعود إلى الجو العام.. فينسى الخطوات الإيجابية.. وينخرط فيما كان قد انخرط فيه.. وتتفاقم المشكلة لديه.. ويجد نفسه وحيداً.. بعيداً عن الأضواء.. بعيداً عن كل شيء.. إلا أنه لا يستطيع البعد عن ضميره الذي يلاحقه وهو يؤدي دوره.. وهو في أي مكان.. فيخلو بنفسه مرة أخرى.. ويتخذ خطوة إيجابية.. صارمة.. نهائية.. جذرية.. يقرر أن يعتزل الفن.. ويتوب إلى الله.. ويتصل بأهل الخير من العلماء وطلبة العلم فيعيدون عليه توطين النفس.. وتحقيقه لشروط التوبة.. ويؤكدون له أن توبته ـ إن كانت صادقة ـ فهي حرية بأن تكون سبباً في مغفرة الله له.. ولو ملأ الدنيا بالخطايا.. ولكنه يبقى

محاولاً طمس الماضي.. ولكن الأنانيين يصرون على أن يكون في الصورة.. يطلب منهم عدم عرض إنتاجه قبل توبته، فيستجيب له طيبون.. ويكيد له آخرون.. يكثرون من عرض إنتاجه بمناسبة.. وبغير مناسبة.. يأملون أن يعود عن قراره.. ولكنه قد صمم.. عاد إلى رشده.. تاب إلى الله.. فتفقد الساحة الفنية أحد أقطابها.. ويحصل ضرر للمنتفعين.. فيهمل الرجل.. وتنطفىء حوله الأضواء.. قد يتهم في عقله ويهمل.. كأنه شيء لم يكن.. كات ستيفن كان من هذا النوع.. واهتدى كات ستيفن.. اهتدى إلى الإسلام.. فكانت نكسة بالنسبة للمعجبين به.. والمتابعين له.. والمستفيدين منه.. فهو لم يترك الفن فحسب.. ولكنه تحول إلى الإسلام.. غيَّر دينه.. وغيَّر اسمه.. صار اسمه يوسف إسلام.. فزال عن دائرة الضوء.. واستمر الناس في السماع واستماع اسطواناته.. وهم يرفضون أن يحققوا له رغبته.. واهتدى غيره كثير من الفنانين العرب.. تركوا الفن.. واتجهوا أكثر إلى الله.. بعضهم لم يكن قد نسي الله من قبل.. ولكنه كان معرضاً عن الله نوعاً ما.. وبعضهم أعرض بالجملة.. وكلهم عادوا.. ولا يزالون يمارسون حياة هانئة.. مطمئنة.. مستقرة.. من بقي منهم على قيد الحياة.

الفنان.. والموت:

والفنان بشر.. تعتريه عوامل الضعف.. ويمر به الهرم.. وقد تنتهي حياته قبل مرحلة الهرم.. قد يموت بمرض سبَّبه له الفن ـ بقدرة الله ـ وقد يموت ميتة «طبيعية» كما يموت غيره من البشر.. وقد يموت بعد سهرة صاخبة يتناول فيها جرعات من مسكر أو مخدِّر.. وجون بالوتشي.. وإلفيس برسلي ماتا بسبب جرعات من مخدِّر.. الأول أعطته

إياه إحدى «صديقاته»، والآخر وجد ميتاً في دورة المياه!!.. نهاية مفزعة.. لا يتمناها أي من البشر.. فتصعق لها الأوساط الفنية.. لقد فقد الفن قطباً من أقطابه.. وأمثالهما كثير، حتى في عالمنا العربي.. فالشيطان يتسلط على البشر.. لا تهمه ألوانهم.. ولا تهمه لغاتهم.. ربما يحاول تكثيف جهوده على أولئك القريبين من الإيمان.. الذين ترجى عودتهم.. يقف في الطريق.. يثنيهم كلما فكروا.. يتمثل لهم بصورة صديق.. أو بصورة الشهرة.. أو بأي صورة يظن الشيطان أنه يمكن أن يصطاد بها فريسته.. وفرائسه من البشر..

والمؤمنون يؤمنون بيوم القيامة.. ويؤمنون بيوم الجزاء والحساب.. ذلكم اليوم فيه حساب ولا عمل.. وهم يؤمنون بعذاب القبر.. قبل يوم الحساب.. ويؤمنون أن الإنسان قد يُعذَّب في قبره.. وقد يكون القبر روضة من رياض الجنة.. ويؤمنون بأن أعمال البشر في الدنيا ـ بعد رحمة الله ـ هي الأساس في عذاب القبر أو نعيمه.. حتى بعض الأعمال اليسيرة قد يتولد عنها عذاب في القبر أو نعيم.. والمؤمنون يؤمنون أن الميت إذا مات ترك ثلاثة أمور: عمل أو ابن أو صدقة، فإن كان العمل طيباً.. والابن صالحاً.. والصدقة جارية نفعت صاحبها في القبر وفيما بعد القبر.. وإن كان العمل غير طيب.. أو الابن غير صالح.. أو خلا المرء من الصدقة الجارية لم يجد معيناً له في القبر.. بل إن عمله غير الطيب الذي تركه وراءه يصبح وبالاً عليه.. فإذا كان هذا العمل من النوع المستمر.. حتى بعد الممات.. فإن هذا سيكون أكثر وبالاً على صاحبه.. والعمل هنا يشمل القول والفعل.. فإذا كان الفنان البشر قد مات وهو مصر على الفن.. وإذا كان فنه يردد بعد مماته.. فإن هذا هو الوبال الكثير.. قد يقابل هذا العمل الصدقة الجارية.. تلكم تنير لصاحبها قبره.. وهذا العمل يزيد في الضيق عليه..

وهنا السؤال الفكرة والاقتراح.. لِمَ لا يقف نشر أعمال الفنان عندما يموت من قبل أولئك المستفيدين من إنتاجه تجارياً؟!.. يقول البعض إنهم لا يستطيعون العيش دون الفن الذين خلَّفه الفنان.. وهنا الازدواجية والأنانية.. فهم يجنون على أنفسهم.. ويجنون على فنانهم.. إنهم يعذِّبونه.. كلما وضعوا شريطه أو اسطوانته في الآلة ليستمعوا له، ولو رأوه يتعذب لما استمعوا له.. ولا لغيره من الفنانين.. الأحياء منهم والأموات.. لو رآه أقرانه الفنانون يتعذب لاعتزلوا الفن جميعاً.. دون تردد. تقتضي حكمة الله ألاّ نطلِّع على الذين يتعذَّبون.. أو يتنعمون في قبورهم.. قد تكون هناك رؤى في المنام ولكنها حالات قليلة..

الفنان.. والإذاعة:

والسؤال الفكرة أو الاقتراح.. لِمَ لا تتفق الإذاعات العربية والتلفزيون العربي على «حجب» أغاني الأموات؟!.. ولِمَ لا تتفق محلات التسجيلات على الاستغناء عن أغاني الأموات؟! إن لم تتفق على الاستغناء عن الأغاني عموماً؟!.. هذه نظرة يسميها البعض بالمثالية.. ونحن لا نقول في الفنان الراحل شيئاً.. سوى أنه أفضى إلى ربه.. وقد ينفعه الدعاء في الدنيا.. فالناس يشفعون للناس.. ورحمة الله وسعت كل شيء.. المهم أن يترك الفنان الميت وشأنه.. وينسى مريدوه ما قدمه في هذا المحيط.. وما تركه مما قد يجني عليه.. وهذا اقتراح ركَّز على جزئية يسيرة من عالم الفن.. لا يوحي بحال الموافقة على الجزئيات الأخرى الباقية.. فالمنطلق هنا ديني.. والإسلام له موقف واضح من الفن/ الغناء.. مهما ظهرت من آراء أو أقوال.. واسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون..

لو سرى هذا الاقتراح لارتاح كثيرون.. ولخفَّت مكتبات الإذاعة

والتلفزيون في العالم العربي من كثير من مخلّفات الماضي.. ولبقي من الماضي ما ينفع صاحبه وينفع الناس.. وما يجب أن يبقى أصوات متجددة النفع.. قرآن كريم.. أحاديث.. محاضرات.. ندوات.. مناقشات.. تحليلات.. أدب.. ثقافة.. هناك الكثير مما يمكن أن يبقى فيفيد.. هناك الكثير مما يمكن أن يُحذَف فلا يُضير..

والفكرة أو الاقتراح غريب.. قد لا يكون واقعياً عند النظرة الأولى له.. وهنا دعوة إلى مزيد من التفكير في الأمر.. قصداً إلى الربط بين الحياتين.. ونحن لا نعيش لهذه الحياة كأننا لا نموت أبداً.. فقد أدعو إلى التفكير في هذه الفكرة الاقتراح.. وأتوقع أن أتلقى لها ردود فعل.. وقد يرى فيها البعض تعاطفاً مع فنانين قد أفضوا فنالوا ما يستحقون عدلاً.. فلهم من الله ما يستحقون.. وقد يقول آخرون.. جنت على نفسها براقش.. وقد.. وقد..